لا تستقيم الدار بدون امرأة..!

يتدافع الناس نحو الباعة كأنهم في سباق، أبدو كالتائه هنا، يقودني الزحام من مكان لآخر، لقد تلوث حذائي اليتيم، قمت بتنظيفه سريعًا مما علق به من الطين الذي يملأ المكان خارج السوق، يبدو أن ماسورة مياه جديدة انفجرت اليوم.

جئت لانتقاء هدية لابني (مالك)، كنت قد وعدته بها إذا ما اجتاز امتحانات آخر العام، لقد اجتازها بتفوق، وها هو العام الجديد قد لاحت بشائره، وأنا لم أَفِ بوعدي بعد..!

عزمت على شراء مجموعة قصصية كهدية له، فهو يحب القراءة كأبيه، غير أن زوجتي لم يعجبها ذلك، اتهمتني بالخيالي الذي يأبى النزول إلى أرض الواقع، وصفت الهدية بعديمة الجدوى، وأشارت عليّ بشراء (طقم شيك) يتبختر به أمام أصدقائه، أذعنت لذلك هربًا من فلتات لسانها..!

مرت ساعة كاملة وأنا أجوب المكان دون أن أشتري شيئًا، انتبهت على صوت عويل يأتي من خلفي، فإذا بامرأة تهرول جزعة وقد تحلّق الناس حولها، لقد فقدت طفلها في هذا الزحام، غير أن رحمة الله قد أدركتها سريعًا، فما هي إلا لحظات وظهر أحد العاملين في المكان حاملًا طفلًا في الرابعة من عمره احتضنته المرأة بقوة وهي تحمد الله، وتتمتم بعبارات الشكر والامتنان لذلك العامل.

توقفت قليلًا أمام هذا المشهد، فتذكرت أمي التي رحلت عني وانا ابن إحدى عشرة سنة، بعد رحيلها فُطِمت من الحنان، وتزوج أبي بعدها سريعًا، كان يقول «لا تستقيم الدار بدون

امرأة» وجاءت المرأة واستقام أمر الدار غير أن أمري منذ ذلك الحين بدأ في الاعوجاج...!

_ آسف أستاذ، لم أنتبه.

_ لا عليك، حصل خير.

انغمست في خواطري، فلم أنتبه لذلك الرجل الذي ظهر أمامي فجأة حاملًا بعض ما حصل عليه في هذا السباق الذي لم أدخله بعد.

أمام الركن الخاص بملابس الأطفال وقفت أتفحص المعروض لعلي أجد شيئًا يناسب (مالك)، لكن لا صبر لي على ذلك ، فآثرت أن أستعين بالفتاة التي تعمل في المكان.

_ أريد (بذلة) تناسب طفلًا في العاشرة.

ما هي إلا لحظات وجاءتني بما طلبت، (بذلة) مناسبة تمامًا، ينطبق عليها أهم شرط حددته زوجتي العزيزة (شيك) هكذا قالت..!

نظرت إلى (الطقم الشيك) الذي أعادني إلى تلك الخواطر التي تلاحقني مذ دخولي هذا المكان ..

كان والدي سخيًّا عطوفًا يهتم بي كثيرًا، حتى تزوج تلك المرأة، تبدل السخاء بخلًا والاهتمام إهمالًا، حتى أصبحت عنصرًا ثانويًّا في حياته، استعملتني تلك المرأة خادمًا على مرأىً ومسمعٍ منه، لقد كان أمر الدار يهمه كثيرًا، أكثر حتى من أمري، اكتسى الوجه بمُرّ اليُتم وقسوته، ولم يعد لي من البهاء إلا الاسم..!

عندما أضحي الزواج مطلبًا حتميًّا لمثلي، قرر أبي أن يزوجني ابنة أخيه (سمية)، امتثلت لرغبته دون مناقشة، كانت

ماديّة جافة المشاعر، تجيد الإمساك بزمام الأمور، ويستهويها دور القائد كثيرًا، تكره الإقامة في هذه القرية التي لا تتناسب مع طموحاتها، كَثُرَتْ الخلافات بيننا، فأصبحنا كخطي سكة حديد يسيران جنبًا إلى جنب غير أنهما لا يلتقيان عند نقطة..!

بعد أن رُزِقت منها بـ (مالك)، اختلفت طريقة تفكيري قليلًا، بدأت أشعر بالقلق تجاه تلك المسئولية التي هبطت فوق رأسي، حاولت التعايش مع شخصية زوجتي التي طالما أرّقتني، غير أنني مع الوقت ركنت إليها، كنت أتذكر مقولة أبي «لا تستقيم الدار بدون امرأة»، تلاشت خلافاتنا شيئًا فشيئًا عندما أشبعت رغبتها وأعطيتها ما أرادت من قيادة وإدارة.

يجب أن أخرج من تلك المعمعة، قبل أن تتصل (سمية) وتتهمني بعدم الخبرة، وتضييع الوقت في أمور بسيطة، خرجت من ذلك السوق أصارع الازدحام، فإذا بسيارة تأتي من خلفي مسرعة، تطاير الطين في كل اتجاه، نظرت بأسىً إلى (الطقم الشيك) الذي سقط من يدي وغرق في الطين..!